الاستاذ أسد غندور

الثقافة والغزو الثقافي وسبل المواجهة

الفصل الأول:

الثقافة في أزمتها الدائمة

1- حول تحديد مفهوم الثقافة:

جهد الكثير، منذ القدم وما زالوا، في محاولةٍ لتحديد مفهوم للثقافة، ووضع تعريف لها.

تعدّدت التعريفات وكثرت المفاهيم. والواقع أن كل ما قيل في هذا المجال يحمل بعضًا من حقيقتها، إلاّ أنه لا يحمل الحقيقة الكاملة.

فالثقافة باتساعها وتنوعها أرحب من أن تُحصر في تعريف، وهي بطبيعتها المتحركة الدائمة التغير لا تعرف حدودًا، وبالتالي لا يمكن ضبطها في أطرٍ ثابتة. وتعريفها عند كل شخصٍ أو منطقةٍ أو عصرٍ ينطلق من نقطة اهتمام معينة تعني هذا الشخص أو الفئة أو المنطقة أو العصر، دون سواه، فالنظرة والرؤية والتعريف، تتوقف بالتالي على نقطة الاهتمام التي يُنظر من خلالها والجزء أو الحيز الذي يُرى منها.

مَثَلُ الثقافةِ كمثلِ الحقيقة عند أهل "التاو" في فلسفة قدماء أهل الصين. فعندما سُئل حكيمهم ما هي الحقيقة؟ أجاب: "الحقيقة فيلُ عظيم ضخم محصور ضمن غرفة ضيقة، فأنت كلما نظرت من ثقب أو نافذة أو كوّة في الغرفة، ترى جزءًا من الفيل غير ذاك الذي تراه من ثقب آخر أو نافذة أخرى أو كوة أخرى... فإنك في كل ذلك، ترى أجزاء من الفيل ولا ترى الفيل بكامله".

وما سأقوله في هذا المجال لا يخرج عن تلك المفاهيم والأسس التي ذكرتها.

وأنا لا أدّعي، على كل حال، الإمساك بجوهر الثقافة أو الإحاطة بإمتداداتها والخوض في أسرارها، وبالتالي لا أدّعي الوصول إلى تعريف نهائي لها، جامع مانع وسرمدي، كما لا تعنيني هنا التعريفات الأكاديمية البليدة.

أنظر إلى الثقافة من نقطة محدّدة لأرى منها جزءًا محددًا أظن أنه يعنينا في أيامنا هذه كما عني آخرين ممن سبقونا من أزمة محدّدة، ربما تشابهت بعض ظروفها مع ما نحن عليه، ولكننا ننظر نحن بعين ورؤية مختلفتين.

يجب أن ننظر للثقافة من حيث انعكاسها على الواقع بما فيه من مؤسسات وأفراد وقضايا وهموم، ومن حيث مردودها العلمي لا مفهومها النظري. من هذا الموقع والمنظار تتخطى الثقافة حدود المعلومات والمعارف وتتجاوز عملية الاستيعاب والصهر لهذه وتلك داخل الذات، لتتحول بعدها عملاً مطابقًا، متساميًا نحو الأفضل. فهذا أعمق للذات، وأكثر مسؤوليةٍ فكريةٍ وضميريةٍ. وبالنهاية تصبحُ موقفًا ملزمًا للذات عن كل ما يحيط بها في هذا الكون، من الآلة إلى البشر فالشجر فالحجر.

فالثقافة إذًا موقفٌ ملتزمٌ ومُلزمٌ لذات صاحبه قبل الآخرين. هذا الإلزام للذات قبل الآخر. يحفظُ للثقافة تواصفها السقراطي ويمنع عنها السقوط في المتاهات.

عندها فقط تغدو الثقافة موقفًا، ويصير هذا الموقف شهادة للحقيقة، كما نراه نحن حقيقة، شهادة للذات وعلى الذات في آن واحد. شهادة صارخة مدّوية يسمع صوتها الآخرون همسًا رقيقًا دؤوبًا حنونًا.

فإذا صارت ثقافتنا موقفًا... فشهادة، تُردم الهوة بين الموقف والشهادة.. بين النظري والعملي، وتصبح ممارسة عفوية صادقة متواضعة. والثقافة لا تستحق اسمها إلاّ متى وصلت إلى هذا الحدّ، وكل ثقافةٍ لا تبرمج الموقف فيها ممارسة والتزامًا، كل ثقافةٍ لا تدفعُ بالموقفِ إلى الشهادة، هي ضربٌ من الترف الفكري القائم على انفصام، أو هي ضربٌ من الرياء والكذب على الذات قبلَ أن تكون كذبًا على الآخرين.

فالثقافة بما تؤديه على الصعيد العملي لصاحبها أولاً ولمن حوله ثانيًا، هي العمل بما نؤمن ونقتنع به، والوقوف بصلابة إلى جانب ما نعتقد. وممارسة هذا وذاك في أصغر تصرفاتنا وأعمالنا إلى أهمها وأسماها، هي الصدقُ في الاعتقاد والجرأة في الإعلان، والإلتزام بالممارسة حتى الشهادة.. وإلاّ فهي باطل وقبض ريح.

2- أزمة الثقافة والمثقفين:

لقد شكا الناسُ، عبر الأزمنة، من انفصال المثقفين بشكل عام عمن حولهم وعما حولهم.

إذ اعتكفوا داخل صدفةِ معارفهم، واعتبروا أنفسهم من الخاصة وترفعوا عن العامة.

وقاموا بجمع المعارف والعلوم لغاية المعرفة والعلم، وبالتالي عاشوا حالة انفصام بين معرفتهم ومسلكهم، فكانوا هدفًا سهلاً لسهام الرماة الذين جعلوا الثقافة مكسر عصا، ونفّروا منها الناس، وأوجدوا هوةً عميقةً بين المثقفين وثقافاتهم المتعددة والمتنوعة وبين الرأي العام السائد. وهنا تكمن أزمة الثقافة والمثقفين العرب بشكل عام، حيث لم يتمكنوا من الإلتصاق بهموم الناس وقضاياهم، ولم يتوصلوا عبر الحوار والتواصل ووضع الآليات إلى صياغة مشروع ثقافي عام له أهداف محددّة وغايات نهضوية ومستقبلية، وأبعاد وطنية وقومية.

فأصبح الدور الذي يؤدّونه من خلال انتاجهم الثقافي وتعابيرهم وموضوعاتهم التي يجهدون للغوص بها والإضاءة على التفاصيل فيها، أصبح هذا الدور يؤدي عكس المهمة المرجوة والمطلوبة منهم، وبذلك يكونوا قد تخلوا، بوعي أم بدون وعي، عن المسؤولية المناطة بهم.

هذه الأزمة، التي غرق فيها المثقفون العرب على مدى عدة قرون، لا تزال تتعمق أكثر فأكثر مع التراجعات والإنهيارات التي يشهدها العالم العربي. وبتنا اليوم نعيش حالة تفرد وانفصال وانسلاخ عن الواقع، ونغرّد من أجل التغريد لا من أجل إيصال رسالةٍ متناسقةٍ متكاملةٍ واضحةٍ ونقديةٍ ومطابقةٍ للواقع وللحاجة الماسة التي يتطلبها هذا الواقع.

3- أهمية الثقافة في تقدم الشعوب وإرساء نهضتهم:

بعد هذا التعريف للثقافة، والخوض في إشكاليتها وغاياتها الإنسانية، والحديث عن المثقف العضوي المنتمي إلى جماعة، يعبر عن همومهم ويعي قضاياهم ويدافع عنها بقدر ما يمتلك من المعرفة والعلم، والإلتزام والمثابرة، لا بدّ من الانتقال إلى أهميّة الثقافة والحركات والمؤسسات الثقافية، بهذا الفهم لدور كل منهم، في تقدم الشعوب وتطورها ونهضتها، خاصة الشعوب التي تعاني من انحدارات وهزائم وتأخرٍ تاريخي، كالشعب العربي.

فلقد لعبت الحركات الثقافية، عبر التاريخ دورًا رائدًا وفعالاً في تطور الشعوب وتقدّمها، وإحداث نقلةٍ نوعيةٍ في وعيها وواقعها وارتباطاتها بمشروع الدولة وقضايا التحرر والعدالة الاجتماعية.

وقد تمّ ذلك من خلال ما أرسته هذه الحركات من قيم وعمقتهُ من وعيٍ والتزامٍ والتصاق بالواقع، فساهمت في بلورة حركات فكرية. وبالتالي سياسية متجاذبة، يعمل كل منها في إطار تحقيق غايات وأهداف، يعتقدُ كل منها أنه يساهمُ في إرساء بنى جديدة أو تحديث البنى القائمة.

هذه الحركات السياسية، ساهمت بشكل أو بآخر بإحداث نقلة نوعية في إعادة بناء عمارة المجتمع وإنتاج مؤسسات فكرية واجتماعية وإقتصادية، وكوّنت دولاً حديثة ومتقدمة. هذا ما حصل في أوروبا في مرحلة عصر التنوير، في فرنسا وألمانيا والعديد من الدول والمجتمعات الأوروبية.

وفي مرحلة عصر النهضة، شهد عالمنا العربي عدة جمعيات وهيئات ثقافية، وبرزت شخصيات فكرية وأدبية أرست مفاهيم جديدة وساهمت في مواجهة كل التحديات التي عانينا منها، على المستويين الداخلي والخارجي.

لعبت هذه الهيئات دورًا فعالاً في تغيير الواقع العربي، وتفعيل وتأطير الحركات السياسية التي واجهت المستعمر بشتى تلاوينه واكتسبت الإستقلال، المراد به أن يُكتسب على الدوام. والأمثلة كثيرة

عن هذه الجمعيات والهيئات وتلك الشخصيات، وأعتقد أن أغلبكم يلم بالكثير من المعلومات عنها، فلا داعٍ لذكرها.

ولكن سرعان ما تراجع الوضع بعد جملة الهزائم التي لحقت بالأمة، وانحدر المستوى الثقافي بشكلٍ عام، وفقد رونقه، ودوره، وتحوَّلت الثقافة شيئًا فشيئًا إلى تبعيةٍ واستغلالِ فرص والكلام من أجل الكلام، وغاب المشروع التغييري والنهضوي عن ساحة الأغلبية المطلقة من المثقفين العرب باستثناء قلةٍ قليلةٍ جدًا حاولت جاهدةً الاستمرار بالدور المفترض أن يقوموا به.

ولكنهم أيضًا افتقروا إلى المشروع المتكامل فيما بينهم، وغاب التنسيق، وانعدمت آليات العمل الحديثة الفاعلة والوازنة.

4- واقع الحركات الثقافية اليوم:

أ- إنّ الحركات الثقافية في لبنان بشكل عام قديمة وعريقة ومتنوعة وناشطة. حيث يوجد آلاف الجمعيات والهيئات. ولكن معظمها، إن لم يكن أغلبها، لا دور ريادي وفاعل لها. والقسم الأكبر يحمل العلم والخبر فقط، ولم يمارس أي نشاط يذكر. وهذه الحالة موجودة في معظم المناطق اللبنانية. وعندما نتحدث عن واقع الحركات الثقافية فإنني أقصد تلك الهيئات التي تتجاوز ببنيتها وبعضويتها وأنشطتها حدود المحلة أو المدينة أو القرية التي هي فيها، لتشمل منطقة جغرافية أوسع. وتضم عناصر متعددة المشارب والأعمار والجنسية والجنس.

ب- إذا أردنا أن نعرف مدى إرتباط هذه الحركات بالواقع الاجتماعي والسياسي القائم: ومن خلال المعاينة، نكتشف أنها:

1. إما حركات مرتبطة مباشرة بالسلطات القائمة.
2. أو حركات على أطراف السلطات، مرتبطة ببعض الرموز الناشطة والمؤقتة أو ببعض رموز المعارضة المتضررة من السلطة، وتطمح أن يكون لها موقع ما فيها.

3. وإما حركات تحمل أسماء لها دلالة التوجه الوطني والنهضوي ولكنها تخضع لإرادة شخص أو بضعة أشخاص أو حزب سياسي، فتفقد الدور والهدف والمصداقية.

وهكذا غابت، إلى حدٍ ما، الحركات الثقافية الواقعية والتغيرية التي تحمل مشروعًا حقيقيًا للتغيير، وتركت الساحة في هذا المجال لبعض المؤسسات الحزبية الضيقة، التي بقيت على هامش الواقع وغير قادرة على التأثير الإيجابي في هذا الواقع، وبشكل صلبي وأساسي.

ج- إنّ غياب الحركات الثقافية الديمقراطية حاملة المشروع الفكري والثقافي، ساهم في تأخر الوعي العام وإبقاء الشعب رهناً لرداتِ الفعل المتخالفة والمختلفة ودفع بشكل أساسي إلى انخراط هذا الكم الواسع من الناس في أتون الصراعات المذهبية والطائفية والعائلية، والسلفية، مما زاد الوضع سوءًا ودفع إلى حافة الإنهيار على جميع الأصعدة، وبالأخص على الصعيد الثقافي والفكري والنهضوي.

د- حتى أثناء الحرب الأهلية العبثية المدمرة، لاحظنا غياب دورٍ فاعلٍ ومؤثرٍ للحركات الثقافية، باستثناء بعض الرموز التي حاولت التنسيق فيما بينها واقتصر نشاطها على ندوة عقدت هنا أو هناك، وعلى موقفِ إدانة للحرب ولأدواتها.

الأسباب الرئيسية لغياب هذا الدور الفاعل تكمن بالأمور التالية: التوتر الدائم – غياب الاستقرار العام – ردات الفعل والفعل المضاد – تغييب العقل والعقلانية – الافتقار إلى الروح النقدية المطابقة للواقع – ناهيك عن تفكك الجماعات الانسانية التي تحمل هم الجماعة وليس هم الأفراد، ليسود نوعٌ من الجماعات العامودية الضيقة المرتبطة بالعائلة والمحلة والمذهب والطائفة.

هـ- بعد انحدار الحرب، وقناعة الأغلبية بعبثيتها، كان يفترض إعادة النظر في كل شيء. والتوجه لإعادة التأسيس والبناء.

- إعادة البناء التي يجب أن تطال كل أشكال العمل، إن ضمن سياسة الحكم القائم وتوجهاته والموقف منها، أم من خلال الأطر الاجتماعية والثقافية القائمة، وأخذ زمام المبادرة ولعب الدور الوطني الذي كان يفترض أن يلعبه بعضها أثناء الحرب.
- في جميع الحالات، تبين أن السياسة بمفهومها الضيق أم الواسع، الفئوي أو الوطني، كانت المحرك الأساس للإندفاعات الثقافية من آنٍ إلى آخر.
- وحيث أن السياسات السائدة، تُعاني القصور وضيق الأفق وردّات الفعل، انعكس ذلك على الأنشطة الثقافية وعلى دور الثقافة في البناء والنهضة والتقدّم.
- بعد الحرب: القوى التي اكتسبت مواقع سياسية في السلطة، راحت تفتش عن منابر لها، لتكون لسان حالها الجديد، بعد أن أصبحت ألسنتها القديمة غير مقبولة وغير مقبوضة.
- أما القوى التي لم تكتسب مواقع في السلطة، راحت هي الأخرى توسع دوائر نشاطاتها عبر المؤسسات البالية القائمة قبل الحرب، وقليل منها عبر تنظيم وإنتاج مؤسسات جديدة ولكن بعقلية قديمة، وأعلنت برامجها وتوجهاتها ومعارضاتها السياسية الخفية تارة والمتملقة تارة أخرى.
- ولا نزال، حتى اللحظة، بالرغم من كل المتغيرات التي حصلت، إن على المستوى الداخلي أو الإقليمي أو الدولي (وبالرغم من انتفاضة شعبية واسعة على مساحة الوطن)، لا نزال نعاني من غياب فعلي لحركات ثقافية وازنة وفاعلة ولها حضور جدي على مساحة الوطن، وتحمل برامج مستقلة، تحديثية ومستقبلية، وقادرة على امتلاك البرنامج الآخر الذي نريده، رغم الدعوات والكتابات عن هكذا توجه، دعوات بقيت مجرد أحلام ولا نعرف مدى مطابقتها للواقع.

و- إذا كانت ظاهرة انتشار الحركات والجمعيات والأندية الثقافية هي ظاهرة صحية في هذه المرحلة، إلاّ أنّه كان المطلوب إعادة النظر بهذه الظاهرة، لا بهدف تحجيم دورها، بل

بهدف عقلنة هذا الدور وجعله أكثر تأثيرًا في الواقع، وهذا يتطلب إعادة النظر بتكوينها، ببرامجها، بمرتكزاتها المادية والمعنوية.

إن الواقع الحالي يتطلب فعلاً حركات ثقافية وثقافة مستقلة، قادرة على فهم الواقع كما هو، بكل تركيباته المعقدة، وقادرة على صياغة البرامج المرتبطة بحاجات هذا الواقع ومتطلباته المستقبلية، وأن تكون من المرونة في حركتها اليومية. إلى حد لا يرميها في أحضان من سيعتبرها بوقًا من أبواقه المتعددة والمتناثرة التي يحركها ساعة يشاء، ولا تنزلق إلى حد الابتعاد عن الواقع وقدرة الأفراد والجماعات المكونة لها والمنظوية فيها ماديًا ومعنويًا، وأن لا تصل إلى مرحلةٍ تكون فيها بحالة مواجهة قاتلة ومكشوفة، وخارج التوازنات، مع من يتربص بها ويريد الانقضاض عليها.

الفصل الثاني:

الغزو الثقافي وأدوات المواجهة

1- مقدمة:

بتعريف مختصر للإنسان، أقول: الإنسان هو الصانع والعاقل، الفاعل والعارف، إنسان العمل والوعي والاجتماع والانتاج، إنسان الحضارة والثقافة، وكما قال ابن خلدون: إنسان العمران.

ينتمي البشر الحاليون إلى نوع بشري واحد، يدعى... الإنسان العاقل... وهذا الإنسان العاقل يملك، منذ ظهوره، خصائص نفسية واحدة وامكانيات ذهنية واحدة. وما التاريخ والأزمنة سوى بسط متنوع لهذه الخصائص وتلك الإمكانات.

فالبشر منذ أقدم الأزمنة، هم جماعات مختلفة تعيش في مناطق مختلفة وتتكلم لغات مختلفة، وتدخل في تبادلات مختلفة.

غير أن هذه الإختلافات، إن كان في الزمان أو المكان، لا يجوز أن يحجب الهوية الإنسانية والمساواتية، رغمًا عن المذهب العرقي الرافض للآخر أو متعالي عليه. ومن الخطأ القاتل، لأنفسنا أولاً، إذا ما اعتبرنا أن الشر أو القهر أو الاستغلال أو الأنانية أو الوثنية، وغير ذلك من الشرور، هي وقف على غيرنا، على جميع البشر فيما عدانا نحن.

أو وقف على الغرب حصرًا. فالنفس لآمارة بالسوء أينما حلّت وفي أي زمان نشأت.

والدنيا ليست الجنة، والتاريخ ليس فردوسًا، إنه دراما ومأساة، أو فيه دائمًا وجهة من دراما ومن مأساة، ولم يكن دائمًا في حالة تقدم. كما أن التقدم يجب أن يمثُلَ أمام محكمة الوجدان والوعي وأن يُنقد دائمًا.

وعلى البشرية أن تعمل على الدوام من أجل تاريخ وتقدم من نوع جديد، أي أقل مأساوية وبدون دعوى فردوسية على الأرض. ويمكن للشعوب أن تقاتل وتواجه من أجل غدٍ أفضل بدون أن يكون هذا الغد هو الجنة، وبدون أن يقال له أنه الجنة.

2- الجماعات البشرية المختلفة في تبادل دائم:

إن ظاهرة النقل أو الانتقال قديمة قدم التاريخ وما قبله، لولاها يكون التقدم الحاصل فعليًا غير مفهوم. وواقعيًا، يمكن القول بأن التقدم والتطور الذي حققته البشرية. على مدى عشرة آلاف سنة ونيِّف، لم يتم بآلية فعلٍ وردِ فعل، بين أدوات إنتاج وعلاقات انتاج وبنى فوقية في إطار مجتمع مجرد، معزول، وهمي، بل تمَّ بفعل العلاقات الأممية أو العالمية، أي العلاقات بين قبائل وشعوب، بين مناطق صغيرة وكبيرة، مختلفة، في الدنيا المسكونة.

الثورة "النيوليتية" وقعت في بلاد الشام بفعل التقاء روافد متنوعةٍ نشأت في المنطقة أو أتت من الجوار القريب والبعيد. ثم انطلقت منها إلى شتى مناطق العالم القديم، عالم القارات الثلاث، كذلك الحضارات النهرية الكبرى وعصر البرونز والحديد والحصان، حملتها إلى الشرق الأدنى شعوب وافدة، غير سامية، وبعد ذلك أصبحت منطقة البحر المتوسط بؤرة عالية التوتر. وعرفنا أشكالاً متعددة من

الإستعمار: الاستعمار الفينيقي – الاستعمار اليوناني – الفتح الاسكندري، الإمبراطورية الرومانية، الرق وتجارة العبيد – المسيحية، الاسلام، الفتوحات العربية.

بوجه الإجمال، ليس التاريخ فقط، بل ما قبل التاريخ، ابتداءً من نقطة ما، إنما تملؤه عمليات النقل، الانتقال، الهجرة، والتبادل بشتى المعاني.

إن مذهب الجواهر يجب أن يُدان، كل الجواهر نسبية. وعند هيغل فكرة الجوهر الصحيحة خاضعة لفكرة العلاقة، وأن هوية الأشياء ليست جوهرًا ماهويًا. بالأحرى يمكن القول أنّ: هوية الثقافات. الحضارات، الشعوب، الأمم لا تدل على تعدد في الثقافات، بل الأفضل القول أنها: ثقافة متعددة.

3- لقد تكوّنت الثقافة العربية والاسلامية في العصور الوسطى بالأخذ:

أخذت بروح مبدئية، وبتصميم، من ثقافات سبقتها في المنطقة وخارجها. وقبلها، تكونت الثقافة اليونانية بالأخذ، أخذت المواد من الشرق الأدنى القديم، وصنعت بهذه المواد شكلاً جديدًا، إنتقل في وقت لاحق إلى العرب ثم إلى أوروبا، وهذا ما يسمى بـ "المعجزة اليونانية".

وهناك معجزة عربية. فلقد كان العرب أسيادًا ومنتصرين، كان لهم هوية، ولم يكن عندهم عقدة هوية. أخذوا موادًا من اليونان ومن الشرق، وشكّلوا ثقافة كبيرة جدًا. ليست فقط تقنيات انتاج وطرق حياة، بل فلسفة وعلوم وفنون وآداب.

إن سلسلة من الفلاسفة والعلماء العرب دخلوا كرافدٍ كبيرٍ في نهوض أوروبا الحديثة، بدءًا من أواسط العصور الوسطى. لقد بسط العرب العقل، إكتشفوه واخترعوه في العالم، أنمو العقل الإنساني، ثم، في ظروف تاريخية معينة ومتلاقية، خرجوا من مسار التقدم.

لكن الثقافة العربية هي الثقافة العربية، إبنة هذه المنطقة الواسعة الممتدة على مساحة أكثر من قارة، وهي مرتبطة بها، ولها خصوصية، بل لها مفردية – والمفردية هي حاصل جمع كليات.

وليست الثقافة العربية نوعاً والثقافة الإنسانية نوعاً آخر، وهي ليست أقرب إلى الثقافة الهندية والصينية منها إلى الثقافة الأوروبية وليس صحيحًا أننا نحن الشرق إزاء الغرب.

هناك شرق آخر، كبير وعظيم وأكبر منا بكثير، وما يجمعنا معه في شرق واحد إزاء الغرب هو العصر الحديث، بكل تعقيداته، إنه الاستعمار، النظام الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي نتج عنه.

4- الاستعمار بالمعنى الأصلي والحرفي للكلمة هو العمران:

بهذا المعنى يصبح التاريخ كله هو استعمار. وهذا المعنى راهن، فثمة الآن زحف من الصحراء على الأرض المزروعة والمعمورة في بعض الأقطار العربية وزحف من الأرياف إلى العواصم والمدن المنتجة. والاستعمار العربي لأرض الوطن بحالة تراجع في الآونة الأخيرة.

غير أن فكرة الاستعمار في تاريخ النوع البشري لم تكن فقط هي استعمار البشر للأرض، بل استعمار البشر للبشر أيضًا.

والاستعمار الأوروبي الحديث، حقبة جديدة نوعيًا في تاريخ البشرية. كان عدوانًا واسعًا وشاملاً، ومن طرف واحد. النظام الرأسمالي البادئ في القرن السادس عشر بعث الرق، أباد الملايين من الهنود الحمر ومن الزنوج الأفريقيين، ثمّ، في وقت لاحق، بشكل خاص في عصر الرأسمالية الصناعية، ثم الاحتكارية والمالية، استطاع الاستعمار أن يفرض تسلّطه على ثلاث قارات، وأن يسخر خيرات هذه القارات لصالحه ولأهدافه، وأن يُغير بناها، ويدخلها في تاريخ جديد، عالمي، يكون هو مركزه وذاته وصانعه، وتكون هي موضوعه ومادته.

لقد ناضلت الشعوب المستعمرة طويلاً ضد الاستعمار، وانتزعت معظمها استقلالها الوطني. ودخلت جميع الدول المستعمرة إلى منظمة الأمم المتحدة. إلاّ أنه إذ باتت جميع الأقطار دولاً مستقلة ظاهريًا فإن التبعية باقية عمليًا.

شروط التبادل مجحفة. فالنفط العربي يغذي تقدم الغرب، وإنتاج هذا النفط ينمو بوتيرة مذهلة، لا سيما بعد هزيمة 5 حزيران 1967.

وبالرغم من التوسع الصهيوني الذي حصل، وارتباط الكيان الغاصب مباشرة بالولايات المتحدة وبالغرب وعدد كبير من الأنظمة العربية الرجعية، فإن العالم العربي يعاني أزمة متنوعة، ثمة في معظم المجتمعات العربية عملية إغناء وإفقار لم يكن أحد يتوقعها قبل أربعين سنة، ولعلّ أكثر من نصف سكان الوطن العربي هم على حافة الجوع، وبلدان بكاملها تندفع نحو الانهيار، وباتت الأمة تفقد الاستقلال الغذائي، والحريات بحالة تراجع دائم، والفكر السلفي التدميري أكثر نموًا وانتشارًا، وثمة أنواع من حروب أهلية كامنة وفعلية داخل هذه الأمة. وثمة تبعية مكشوفة للخارج. رغم "الاستقلال".

وهل يمكن اعتبار هذه التبعية طوعية أم أنها تبعية بالوساطة، والمقصود وساطة الأوضاع والبنى المتأخرة والمهترئة بالكامل. وهل بنينا استقلالنا، واستطعنا تقرير مصيرنا، والتطلع إلى المستقبل؟ وهل أدرك المثقفون أن الاستقلال الحقيقي هو بناء لمجتمع موّحّد ومتماسك؟

منذ خمسين سنة أو أكثر، لم يكن الفقر أكبر وأكثر انتشارًا، ولا فيضُ الثروة والرشوة والفساد، كذلك القهر الإنساني والاستبداد والتسلط، ولا التجزء العربي. اليوم لا يوجد مشروع قومي عربي مع أن المشروع الصهيوني يتقدم عامًا بعد عام، ومع أن الشعب الفلسطيني يعلن رفضه على الدوام، والمقاومات العربية تفرض وجودها وحضورها الفعلي.

إن طرح هذه الأمور للقول بأنه لا يجوز أن تكون مقاومة الغزو الثقافي مهتربًا وتعويضًا عاجزًا عن حقائق سياسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية تنتصب أمامنا كالجبال. فلا مقاومة لغزو ثقافي أجنبي، ولا حفظ أو بناء لهوية ثقافية قومية طالما أن عشرات بل مئات الملايين من العرب يعيشون ليومهم، لا يعرفون غدهم، ولا يسيطرون على الحد الأدنى من مصيرهم. فعندما يزحف البشر على بطونهم، فهم ليسوا بحاجة إلى أية ثقافة لا غازية ولا أصيلة.

باختصار، ما يجابهنا بالتلازم هو: إفقار الجماهير الواسعة، تراجع القيم الديمقراطية وفكرة الدولة كدولة حق وقانون، تراجع الوحدة العربية كمشروع وهدف، بل تراجع الأمة العربية ككيان حقيقي، كاستقلال ومستقبل، وتصالح بشع مع واقع قذر ومرير. وإذا استمرت هذه الحال، تكون قضية الهوية الثقافية العربية، كمشروع عمل، معلَّقة في الهواء.

بتعبير آخر، إن قضية الغزو الثقافي تأخذ مكانها في إطار تاريخي وسياسي راهن ومحدّد.

5- ما الذي يغزونا فعلاً في الوقت الراهن:

الذي يغزونا ليس ديكارت ولا أرسطو أو هيغل أو ماركس... ولا أعتقد أن هؤلاء يؤلفون عامًا فكريًا بذاته، وأن المعرّي والحسن بن الهيثم وإبن رشد وابن خلدون والخوارزمي... يؤلفون عالمًا فكريًا آخر. المسألة سياسية واقتصادية واجتماعية وبالتالي ثقافية.

فالذي يغزونا هو عالم حضاري حديث جدًا في الغرب نفسه، هو مجتمع الاستهلاك والانحلال والتغرب. الذي يغزونا هو تذرر المجتمع وضياع الإنسان كجملة علاقات اجتماعية بشكل رئيسي. إن الاجتياح الثقافي أو الحضاري الذي يأخذنا تابع لنظام عام اجتماعي – اقتصادي وسياسي، تكوّن ويتكوّن عندنا بخطى سريعة، ومن المحال مقاومته جديًا بدون إحداث تغيير في بنية النظام القائم.

الذي يتراجع هو، في المقال الأول، فكرة العمل أو الشغل والانتاج، كينونة الإنسان الأساسية، فكرة التعامل والوعي والوجدان والأخلاق والحق، فكرة الوقت والقانون والقيمة الإنسانية، فكرة الدولة والمؤسسة الوطنية، مفهوم القيمة والمساواة. ما يتراجع هي الهوية العربية التي تحمل مشروعًا تقدميًا نهضويًا.

من الخطأ الإعتقاد بأنه من الممكن وقف الغزو الثقافي أو الحضاري بدون تغيير صلبي في بنية النظام القائم من أساسه، بدون تغيير المسيرة العربية التي تنمو باتجاه مزيد من التفكك والتبعية

والتأخر، بدون الرجوع إلى قضية العرب الكبرى التي حملناها قبل نصف قرن. فليس ثمة مشروع قومي عربي مستقبلي إذا لم يكن في أساسه مفهوم العمل والاجتماع الانساني.

والسؤال الأساس اليوم: هل نحن مقتنعون بتاريخ العالم، بمصير عالمي للإنسان بحد ذاته؟ وهل نحن نريد الرجوع إلى ماضٍ قومي خاص بنا، أم نريد، كعرب، مشاركة حقيقية في رسم النظام العالمي برؤية مستقلة وجادة وحديثة، ونقدية وعقلانية.

إن أحوال العالم اليوم، ليست فقط أحوال العرب، ليست بخير. تاريخ البشرية واصل الآن إلى نهاية...؟، فإما أن تكون نهاية نظام قائم بالكامل، أو أن تكون نهاية النوع نفسه. والثورة المطلوبة هي أهم انعطاف في تاريخ النوع منذ ظهوره. والثورة أكبر بكثير من "الإصلاح" ومن الانتفاضة، إنها جهد طويل ويومي ومتواصل. فهل نعتبر أنفسنا خارج هذه القضية الكبيرة والمعقدة؟ هل نعود إلى سلف صالح، إلى أمجاد وهمية إلى تراث نؤسطره، أم نعود بالوعي والجهد والكفاح إلى مبدأ الإنسان وعالمه من أجل الخروج من الراهن والتطلع إلى المستقبل؟

ألسنا جزءاً من البشرية، أليست البشرية جزءًا من تضمننا، بل أول تعيناتنا؟

هل نعتبر الانطواء على الذات ردًا ناجعًا على غزو ثقافي، أم نقتنع بأن العالم معقول أي موصول، وأن الضروري والمطلوب أن نتملك هذا العالم بالوعي والعمل؟

في الواقع، أننا لم نتملك هذا العالم، بل أن هذا العالم، في وجهه السلبي، هو الذي يتملكنا.

لقد ترجمنا آلاف الكتب ونقلنا مئات الأفكار، وأحدث العلوم والبحوث العلمية، لقد حاولنا اللحاق بمسيرة التقدم المفهومة كمسيرة على خط يتقدم إلى ما لا نهاية، انتقلنا باسم الأحدث، من موضة إلى موضة، الوجودية، الماركسية، البنيوية، الأنتربولوجيا الثقافية...

إلاّ أن المفقود هو الأساس، المفقود هو الروح النقدية المطابقة للواقع، المفقود هو المشروع القومي والإنساني، القضية الحقيقية.

إن الفكر العربي اليوم، في معظمه، يفتقد بآن معًا إلى: الفلسفة وإلى الشعب وإلى الواقعية... ولا يعي أن هذه النقاط الثلاث هي ثلاثة وجوه لموقف واحد. وهذا الموقف الواحد هو أحد أهم وجوه الغزو الثقافي، سواءً أُريد لهذا الموقف أن يتراكب مع موقف تقليدي وماضوي وأن يمده ببعض المعطيات "العلمية" أو "العلموية"، أو أُريد له أن يكون ردًا على الماضوية والسلفية وما شابه.

إنّ قسمًا من الفكر العربي الحالي يقيم وثنية أصالة، وقسمًا يقيم وثنية حداثة... كلاهما وثنية، وكلاهما نفي للإنسان.

إن الردّ على الغزو الثقافي الغربي، والصهيوني، يتطلب موقفًا كليًا من الإنسان وتاريخه ومصائره، هذا الموقف الكلي الأساسي هو البديل الحقيقي عن فكرة اللحاق بالغرب، وعن فكرة تمثل آخر منجزات التقدم، إذ أن هناك تقدم نحو التقدم، وتقدم نحو الهاوية.

هذا الموقف التاريخي، مطلوب اليوم، وكل يوم من المفكرين والمثقفين العرب في مختلف الساحات العربية.

كلمة أخيرة:

لم تتقدم الشعوب التي أرست نهضتها وثورتها في المضمار الحضاري جديًا إلاّ بعد أن انطلقت من أرضية عقلانية في معالجة قضاياها العصرية والمصيرية.

والأمر الغريب في ما يتعلق بنهضتها العربية، أننا كثيرًا ما نتكلم عن العقل والعقلانية، دون أن نقطع مسافة مهمة على هذه الدرب الطويلة والشائكة والمعقدة، ليس في السياسة فحسب، بل على مختلف الجبهات: الاجتماعية والاقتصادية والبيئية والثقافية. مما يدل أن عقلنا، الذي توقف إلى حد ما مع انهيار المعتزلة، ليس مصاب بأزمة، وإنما هو مصاب بأفات بنيوية مزمنة وفاضحة.

وعلى الحركات الثقافية، وكل المثقفين الملتزمين العضويين، أن يكونوا جاهزين لإلتقاط هذه الأفات وتفنيدها، ودحضها، وصولاً إلى نشر ثقافة مغايرة قادرة على إحداث نقلة نوعية في وعي الشعوب وتقدمهم وتحديد أطر تنظيمة لمؤسسات ثقافية حديثة منسجمة مع روح العصر ومتطلباته.